مجلة دراسات تاريخية

NISSN: 9741-2352 EISS :6723-2600

صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني على ضوء رحلة -أبو سالم العياشي-

The image of the Algerian society in the south of the Sahara during the Ottoman era in the light of the journey of Abu Salem al-Ayashi.

نمير حسين
Nemir Hocine
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة،
nemirh29@gmail.com

صابري محمد
Sabri Mohamed
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة،
sabri.mohamed.03@gmail.com

الارسال: 22/02/27 القبول :22/03/08 النشر:2022/04/16 المرسل: نمير حسين

الملخص:

تعتبر الرحلة سلوكا ملازما للإنسان، فمنذ أن وجد الجنس البشري لم يتوقف عن التنقل والترحال، على الرغم من تباين الدوافع وتعدد الحاجات التي يمكن إرجاعها إلى الرغبة في اكتشاف المجهول والتعامل معه بما تيسر من وسائل مع التطلع المستمر إلى امتلاك القدرة على التواصل والانتفاع، ومهما كان الغرض من هذه الرحلة، فقد شهدت تطورا على مر العصور وظهرت بشكل جديد على شكل يوميات أو مدونات عرفت باسم" أدب الرحلة" وقد شكلت مصدرا مهما من مصادر التاريخ والجغرافية.

ومن بين أهم الرحلات التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرن (11ه/17م) هي رحلة أبو سالم العياشي الموسومة بـ" ماء الموائد" أو" الرحلة العياشية" والتي تعد من أهم المصادر لمادة التاريخ وسوف تشكل مرجعا لكل الرحلات التي سوف تأتي من بعدها إذ أنه رصد لنا مختلف مظاهر الحياة السياسية و الدينية والاجتماعية الاقتصادية للبلدان التي مر بها، والجزائر بلد من البلدان التي ارتحل إليها العالم أبو سالم العياشي بحيث أنه سلك طريق جنوب الصحراء الجزائري خلال الفترة العثمانية، ومن خلال هذه الورقة البحثية سوف نحاول أن نلقي الضوء على الجانب الاجتماعي لمنطقة جنوب الصحراء الجزائري محاولين التعريف بالمجتمع الصحراوي خلال العهد العثماني على ضوء هذه الرحلة.

الكلمات الدالة : أبو سالم العياشي، الرحلة، المجتمع، العادات والتقاليد ،ركب الحج.

Abstract

The journey is an inherent behavior of man. Ever since the human race was found, it has not ceased to travel and travel, despite varying motives and multiple needs that can be attributed to the desire to discover and deal with the unknown in such a way as to facilitate it and the constant aspiration to have the ability to communicate and benefit. "Journey Literature" has been an important source of history and geography.

One of the most important trips that the Islamic Maghreb has known during the century is (11/17) is Abu Salim Al Ayashi's "Table Water" trip. Or "Al-Ayyasha," which is one of the most important sources of history and will be a reference for all the travels that will come after him, since he has monitored for us the various manifestations of the political, religious and socio-economic life of the countries he has been through, and Algeria is one of the countries to which Abu Salim Al-Ayyashi has travelled, so that he has taken the Algerian sub-Saharan route during the Ottperiod.

Keywords.Abu Salem al-Ayashi, Journey, Society, Customs and Traditions, Hajj.

مقدمة:

شكلت الرحلة عنصرا مهما في النشاط الإنساني على مر التاريخ، فمنذ بدايات الجنس البشري، لم يتوقف عن التنقل والترحال، وهي سمة أساسية في التركيبة الجسدية والنفسية، فكثيرا ما ارتحل الإنسان من مكان إلى آخر سعيا وراء إيجاد مناطق حيوية أو بحثا عن سبل الرزق، وحتى بعدما استقر الإنسان وبنى المجتمعات ظل على مدى العصور التاريخية يتطلع إلى استكشاف الآفاق البعيدة رغبة منه في البحث عن مناطق جديدة مختلفة عن البيئة التي تَعَايَشَمعها، ومهما كان الغرض من الرحلة، فقد شهدت تطورا على مر العصور وظهرت بشكل جديد على شكل يوميات أو مدونات عرفت باسم" أدب الرحلة" وقد شكلت مصدرا مهما في مصادر التاريخ والجغرافية.

ومن بين أهم الرحلات التي عرفها المغرب الإسلامي خلال القرن (11هـ/17م) وهي رحلة أبو سالم العياشي الموسومة بـ" ماء الموائد" أو " الرحلة العياشية"وهو موضوع دراستنا حيث تعتبر الرحلة العياشية رحلة حجازية تناولت مواضيع مهمة عن البلدان المغربية وذلك بحكم الطرق التي مر بها والتي شملت المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ثم انتقل إلى المشرق الإسلامي مرورا بمصر، ثم الحجاز لينتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس، والجزائر بلد من البلدان التي مر بها ورصد لنا معلومات مهمة حول المناطق التي مر بها، إذ يُعد من أهم كتب الرحلة المغربية التي تحدثت عن جنوب الجزائر ومن المصادر المهمة و الثرية بالمعطيات التاريخية ومما زاد من قيمتها العلمية هي المواضيع المختلفة التي تعالجها خاصة في ظل ندرة المصادر التي تتحدث عن الجنوب الجزائري ومن خلال هذه الورقة البحثية سوف نعرض أهم ما رصده لنا العياشي عن الحياة الاجتماعية في ظل الوجود العثماني وعليه نطرح الإشكالية التالية:

من هي شخصية أبو سالم العياشي؟ كيف صور لنا المجتمع الصحراوي؟. وما مدى مصداقية أخباره التي نقلها عن المجتمع الصحراوي؟ وفيما تمكن أهميته رحلته بالنسبة لتاريخ الجزائر؟.

1. مفهوم الرحلة:

1.1لغة:

جاءت الرحلة في اللغة بعدة معان منها الترحال والسير في الأرض فقد وردت في لسان العرب لابن منظور: " رَحَلَ الرَّجُلُ: إذا سار، ورَحُلْ رحول وقومُ رُحَلْ: أي يرتحلون كثيرا. ورَجُلٌ رَحَّالْ: عالم بذلك ومجيد له"[1]. وجاءت أيضا الرحلة من الارتحال والذي يعني الانتقال من مكان إلى أخر لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا[2].

ومما سبق ذكره يمكن القول بأن الرحلة جاءت بمعنى السير والانتقال من الوجهة أو المقصد الذي يريد الشخص السفر إليه أي بمعنى أخرى رحلة تطلق على من انتقل من مكان إلى مكان أخرى.

1. 2اصطلاحا:

مصطلح أدبي وجغرافي يقصد به غالبا ذلك المنتوج الفني الذي يروم التنظير لأدبيات السفر والمسير ، أو ذلك الخطاب الذي يتبع نشاط الرحالة وهو يجوب البلاد ويقطع المسافات إما عبرة واستبصارا، أو حجا واعتمارا، وربما نزهة واستطلاعا، أو طلبا للمعارف و العلوم، أو سعيا لاكتساب التجارة والعروض[3].

فالرحلة بذلك هي صنف تأليف يختص بتتبع الراحل في لحظات تنقله من أمكنة وأزمنة معينة، فيتم رصد الراحل لذكرياته أثناء هذا التنقل في وصفه للمسالك والممالك، في الحديث عن الطرق و المجتمعات التي يتصل بها والظروف المحيطة بها أثناء ذلك، وما يلاحظه من وقائع و أحداث قد تدعو إلى تسجيلها و الكتابة عليها، مع عرض أنشطته المختلفة الخاصة به أثناء هذه الرحلة[4].

1. 3تعريف أدب الرحلة:

هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جري له من أحداث وما يصادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر[5].

2.أنواع أدب الرحلة وأغراضها:

تختلف أنواع الرحلة بحسب اختلاف أهداف صاحبها منها والأغراض التي يصبوا إليها من ورائها، والدوافع التي حملته على السفر، كما أنها قد تكون جماعية أو فردية، بالإضافة إلى طبيعة الرحلة سواء كانت رسمية–أي من طرف سلطة معينة- أو شخصية-فردية تطوعية- وسوف نحاول أن نورد هنا أهم وأبرز أنواعها:

1.2الرحلة الحجازية:

يعتبر الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم ومسلمة، فقد كان المسلمون يتجشمون كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة[6]مصداقالقول الله تعالى في محكم التنزيل: **"وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميق"**[7].فالدعوة إلى حج بيت الله الحرام قديمة منذ أيام إبراهيم الخليل وجاء الإسلام ليلزمهم به مرة في العمر للقادر على ذلك وأصبح الحج أحد قواعد الإسلام مقرونا بالاستطاعة[(8)]وأثناء هذه الرحلة المباركة التي يؤديها الحجاج إلى بيت الله ، كان من الطبيعي أن ينقل بعض الحجاج أخبارهم بوصف كثير مما وقع لهم في سفرهم وما قاموا به في مناسكهم[9].وبذلك ظهر نوع من أدب الرحلة والذي بعرف بالرحلة الحجازية وهو من أهم أنواع الرحلات التي عرفه المسلمين لأن مقصدها كان أسمى ألا وهو أداء فريضة الحج فالرابط الروحي المتمثل في أداء فريضة الحج، كان محفزا على هذا النوع من الرحلات إذ أن الرحلات الحجازية هي التي يكون الباعث إليها زيارة البقاع المقدسة، وعلى رأسها مكة والمدينة مهبط الوحي، بالإضافة إلى زيارة المسجد الأقصى، وزيارة الأولياء والصالحين، مما دفعهم إلى تسجيل ما يشهدونه وما يرونه خلال السفر، ويصوغون ذلك في قوالب فنية تخلد رحلاتهم وذكرياتهم[10].

إذ يعد الحج ينبوعا فجر مواهب الرحالة وحرك أقلامهم لوصف وسرد كثير من القصص و الأخبار، التي سمعوها في طريقهم، ووصف المشاهدات التي رأوها في أثناء رحلتهم، ودون بعض الحجاج واسعي الثقافة

مشاهداتهم بعد عودتهم، لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين ولتساعدهم على أداء مناسكهم ومن ثم زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد الإسلامية، وأسس اقتصادياتهم، وينابيع ثروتهم ورخائهم[11] وبذلك يمكن القول أن رحلاتهم جاءت سجلا وافيا عن الكثير من أحوال البلدان التي زاروها في مختلف جوانب الجغرافيا و التاريخ و الاقتصاد و العمران والأحوال الاجتماعية والدينية والثقافية، بل تعدت الرحلة بذلك إلى التفسير والنقد للكثير من القضايا و المشكلات،التي شهدتها عصورهم بالإصلاح حينا والنقد حينا أخر[12].

2.2الرحلة السياسية الرسمية:

وهي التي تتكون من الوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيدا لفتح أو غزو[13]. كما أنها تكون عبر سفر رسمي ومنظم ومؤطر ويكون داخليا أو خارجيا سواء ضمن الإقليم الجغرافي للدولة أو خارجها إلى الأمصار الأخرى[14]. فيركز صاحب الرحلة على تدوين أخبار الحكام والسلاطين وكذا نقل كل شؤون الدولة في مختلف المجالات، وأحسن مثال على ذلك هو مصنف الرحالة المغاربي التمكروتي[15]المعروف بـ : **" النفحة المسكية في السفارة التركية".**

3.2الرحلة العلمية:

يعد طلب العلم من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للقيام برحلات، وكان الإسلام دائما مشجعا لشد الرحال في طلب العلم، فرحل اللغويون والنحويون، ورواة الشعر للبوادي لجمع اللغة من أهلها، وفي محلها الصافي الذي لم يكدر بلكنة أو لحن، ورحل المحدثون إلى الصحابة والتابعين لحفظ الحديث من التشويه وحمايته من الدخيل والموضوع، فقد استجمع أهل الحديث أمرهم، وانطلقوا في الأرض باحثين عن صحابة رسول الله عليه وسلم في الوهاد والنجاد، وكذلك كان طلاب العلم من الرحال بل إن كثيرا من الرحلات ارتبطت بالإجازات العلمية وذكر سلسلة المشايخ الذين درس عليهم الرحالة[16].

4.2الرحلة التجارية:

فالتجارة أمر يقتضي القيام بالرحلة والسفر، إذ كان التجار يضربون في أراض جديدة عن طريق القوافل، وعن طريق البحر[17]للتجارة من أجل تبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى وتندر في بلد المسافر، وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو للعمل[18].

5.2الرحلة السياحية (استكشافية):

ويكون الهدف عادة من هذا النوع من الرحلات السياحة والتعرف على الأماكن الأخرى الجديدة عن الوسط الذي عاش فيه الرحالة، إذ يقوم الرحالة بوصف دقيق للأماكن التي تجلب السياحة كانت طبيعية أو أماكن مقدسة والرغبة في البحث واستطلاع أخبار أمم غابرة من خلال آثارها المنقوشة على الأحجار ومعرفة أحوال بلدان لم تكن معروفة من قبل، فمن دوافعها تكون ذاتية رغبة في اكتشاف المجهول وهذا الصنف من الرحلات معروفة كثيرة عند المسلمين وغيرهم، تكون الحروب بدايتها في حملات استطلاعية لمعرفة ثغور ومراكز ضعفهم مما يسهل عملية الاحتلال وهذا ما نجده عند الغرب إذ اهتموا بترجمة ودراسة النصوص الجغرافية التي دونت من طرف المسلمين وكانت تلك الرحلات بدواع سياحية وبحثية إلا أن غيرهم استفادوا منها في جوانب أخرى[19].

3.ترجمة أبوسالم العياشي(1037-1090هـ/1628-1679م):

أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ونعت بشيخ الإمام الرحالة الأديب الماهر الحافظ،[20] ولد بقبيلة آيت عياش[21]قرب تافلالت[22]سنة (شعبان1037هـ/ماي1628م)، كان أبوه شيخ زواية وهو الذي أشرف على دراسته الأولى ثم انتقل العياشي إلى زاوية وادي درعة وتتلمذ على يد محمد بن ناصر[23]ثم عاد إلى فاس[24] حيث أكمل تعلمه على يد مشايخ مثل عبد الرحمن بن القاضي[25]وعبد القادر الفاسي[26]الذي أجازه سنة (1063هـ/1653م).

ثم انتقل إلى المشرق وأقام بعواصمه طلبا للعلم، المرة الأولى سنة (1059هـ/1649م)، والمرة الثانية سنة (1064هـ/1653م)، والمرة الثالثة سنة (1073هـ/1661م).وتوفي العياشي بالمغرب الأقصى سنة (1090هـ/1679م) بسبب الطاعون.[27]

آثاره:

كان العياشي محدثا وصوفيا وعالما وشاعرا، له منظومة في البيوع وأخرى في التصوف سماها : " تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية" وله أيضا كتاب التراجم عنوانه : " اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار"، إلا أن العياشي اشتهر برحلته[28].

1.3تعريف بمصنفه:

أما فيما يخص التعريف برحلة أبو سالم العياشي فتجدر الإشارة إلى أن أبو سالم العياشي قد ارتحل إلى المشرق ثلاثة مرات الرحلة الأولى كانت عام1059هـ، والرجوع كان1060هـ وكان وقتها أبو سالم شابا لم يدون في هذه الرحلة شيئا وإنما كانت رحلة قضى فيها مناسكه كغيره من الحجاج، الرحلة الثانية كانت في عام 1064هـ والرجوع كان سنة 1065هـ أما الرحلة الثالثة لأبو سالم العياشي فكانت سنة1072هـ والرجوع كان 1074هـ،[29]وهي السنة التي ألف فيها أبو سالم رحلته الشهيرة المعروفة بماء الموائد في مجلدين كبيرين[30]، وهي من أعظم الرحلات العلمية التي عرفها أهل المغرب، طبعت بالمطبعة الحجرية بفاس سنة (1316هـ/1898م) في جزئين متوسطين[31]. قال عنها الشيخ المسناوي (ت1136هـ/1723م)في كتابة جهد المقل القاصر:" جمة الفوائد عذبة الموارد غزيرة النفع جليلة القدر جامعة في المسائل العلمية المتنوعة ما يفوت الحصر، سلسلة المساق و العبارة ، مليحة التصريح و الإشارة، كرحلة العلامة الضابط أبي عبد الله ابن رشيد الفهري المسماة بملء العيبة"[32].

وبالحديث عن رحلة العياشي أو ماء الموائد فهي رحلة حجازية كبرى التي سجل فيها أبو سالم العياشي وقائع رحلته إلى الحجاز عام (1072هـ/1661م) مضيفا إليها ما كان قد شاهده في رحلتيه الحجازيتين السابقين سنتي (1059هـ/1649م-1064هـ/1653م) حيث وصف فيها ما حدث له من وقائع فيهما وقد تحدث في مطلعها ما حصل له من رحلته الحجازية الأولى، مما يتعلق بالمسالك، وملاحظة الطريق ومراحل السفر، مما يشترك فيه جميع الناس، كما لم يحصل للعياشي في الحجة الثانية منها إلا ما يتعلق بلقاء الشيوخ ، وإجازاتهم، وارتباطه بروايتهم، مما كانت فهرسته" اقتفاء الأثر " كافية لاستيعاب ذلك " فانصرف العزم عن كتابة ما سواه، إذ هو بدونه قليل جذواه وصممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجوع..." لذلك كان لابد من رحلة ثالثة

تكتمل بها الأحداث والوقائع، وتتظافر فيها العناصر المثيرة للتسجيل ، بحيث يتجمع ما تقوم به مواد الرحلة في مختلف جوانبها، مما تحصل به الفائدة وينتفع به المقيم و المسافر.

وهكذا تهيأت كتابة رحلة شاملة جمعت بين وصف الطريق وتعداد المراحل وتوسعت في التعريف بنشاط ركب الحاج في الحل والترحال، واستأثرت بذكر العلم وأهله ، وتقديم مواده ومصنفاته، والتعريف برجاله. وجمعت الحديث المفصل عن المناسك ، ومعالمها المقدسة ووصف الآثار الباقية منها مما كان لمشهدها وجود في السير والمغازي النبوية.[33]

2.3أهمية الرحلة:

تكتسي الرحلة العياشية أهمية خاصة بما تقدمه للقارئ من معلومات قيمة ورغم الطابع الديني الذي يغلب عليها والنزعة التصوفية التي تتحكم فيها تعد بحق مصدرا أساسيا لكل باحث في الفترة التي تغطيها والأماكن التي عرفتها إذ يمكنه أن يستقي منها المعلومات الجغرافية والأحداث التاريخية، والأوصاف العمرانية والملاحظات والتيارات الثقافية، فيستطيع من خلال ذلك أن يكون صورة حية عن العادات و التقاليد وحالة العمران والأحوال المعيشية والصحة

والأمنية وأوضاع الزراعة والصناعة، وميول العامة واهتمامات الخاصة ولاسيما فيما يتصل بالمعارف الفقهية وسلوك المتصوفين والفقهاء في القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد، حتى أن القادري وهو يصفها في كتابه التقاط الدرر قال عنها بأنها " جمة الفوائد غزيرة النفع في المصادر و الموارد"

وكغيرها من الآثار المكتوبة كانت رحلة العياشي تعبيرا صادقا عن ثقافة العصر ومميزات المجتمع فقد جاء أسلوبها جافا بسيطا يميل إلى الغموض و التكليف والمبالغة لا سيما عند حديثه عن العلماء الصالحين والأولياء والدراويش كما لا يخلو أسلوبها من الاستطرادات المتكررة مع غياب النقد وعدم التركيز ، والميل إلى الإطناب ، وعلى العموم فقد حظت رحلة العياشي بعناية العديد من الكتاب و الباحثين الذين وجدوا فيها مادة غنية عن المجتمع العربي في القرن السابع عشر[34].

3.3مسار الرحلة:

أما عن مسار رحلته فقد انطلق من المغرب مرورا إلى جنوب صحراء الجزائر وهو الموضوع قيد دراستنا فقد اتخذ العياشي طريق سفره إلى الحجاز متبعا اتجاهين شمالي و جنوبي، بدء من سجلماسة[35]إلى أن توغل في الصحراء ووصل إلى واحات توات[36]مسايرا وادي جير[37]ووادي الاساور (وادي الساورة)، ووادي طمغاوب، ثم اتبع طريق شمالي شرقي من أوقرت إلى الدغامشة، فالقليعة إلى ورقلة، ثم إلى تماسين وتقرت[38]ومنها الجنوب الجزائري إلى الجنوب التونسي فطرابلس فالقاهرة ثم إلى الحرمين الشرفيين ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس[39].

الشكل 1: خريطة تمثل مسار ومسلك رحلة العياشي الحجازية

المصدر: عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661-1663م)، ج.2، تحقيق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، الإمارات العربية المتحدة، دار السويد للنشر والتوزيع،2006م،ص539.

4. جوانب من صورة المجتمع الجزائرعلى ضوء الرحلة:

1.4التركيبة البشرية للمجتمع الصحراوي:

لقد نقل لنا العياشي من الرحلة تركيبة المجتمع الصحراوي إذ صنفهم إلى صنفان وهما البدو والحضر ، حيث أنه عند مروره بقرية امليلي بمدينة بسكرة، ثم زيارته لزاوية عبد الأخضر قال: " **...اشتهر عند الخاص والعام و البدو والحضر..."**[40]، ونصادف هذا أيضا عند لقائه لنزلة من الأشراف بنفس المدينة، حيث قال عنهم : **"وهم قوم صح نسبهم واشتهروا عند الحاضر والباد".**[41]نستشفي من حديث أبو سالم العياشي أنه يمكن تقسيم العناصر المجتمع الصحراوي إلى عنصرين أساسيين هما الحضر والبدو.

أ- الحضر:

الحضر[42]هي مجموعة سكانية قاطنة بالمدن والتي تعود أصولها إلى الفترة الإسلامية، وما انضم إليها من أندلسيين وأشراف، وقد تميزوا بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة بالوضع الاجتماعي المتميز، مما جعلهم يؤلفون طبقة ميسورة الحال تضم العلماء و التجار والصناع وأصحاب الحرف وقد اهتمت هذه الطبقة بتنمية ثرواتهم واستغلال أملاكهم واستثمار مزارعهم الواقعة بالقرب من المدن مما جعلهم يؤلفون طبقة برجوازية في المدن الصغيرة[43].

ب- البدو:

بالنسبة لسكان البدو عند العياشي، فيقصد بهم البدو الرحل والأعراب الذين يشكلون غالبية المجتمع الصحراوي، ضلوا يتنقلون ويرتحلون ويضربون مضاربهم عند أسوار القصور أو بقربها بجانب غابات النخيل[44].

2.4 الأسر الشريفة:

تطرق العياشي في رحلته إلى الأسر الشريفة حيث أشار إلى جماعات في جنوب الجزائر ركز على نسبها الشريف، فهو عنصر متميز في نظر العياشي، وهذا ما جعل تعاطفه يزيد مع هؤلاء ومثال ذلك على الأشخاص

الذين لقيهم بضواحي بسكرة: **" ولقينا في ذلك اليوم رجالا ونساء راحلين وعليهم أثر الجوع باد، وفتتوا أكبادنا وهم قوم من الأشراف صح نسبهم واشتهر بين الحاضر و الباد من أهل تلك النواحي وأخبرني بصحة شيخنا أبو مهدي وهو عارف بأخبار البلد وأهلها..."**[45]. نستشفي من حديث أبو سالم العياشي انه كان مهتما بمسألة الأشراف وقد حاول التأكد من نسبهم من خلال الشيخ أبو المهدي العارف بأخبار البلد وأهلها كما تعاطف معهم لما لقوه من الجوع البادي عليهم.

3.4 بعض عادات المجتمع الصحراوي:

أ-الأعياد:

من بين العادات التي نقلها الرحالة ، عادة سكان الجنوب في الاحتفال بليلة العيد ووصف أجواءه، ومنهم أهل بوسمغون، إذ أنه من بين عوائدهم ذلك اليوم أنهم يخرجون صبيحة العيد، قبل طلوع الفجر للقيام بالصلاة، وبعد الانتهاء منها يخرجون كبارا وصغارا ، حاملين في أيديهم أسلحة ، ويقول: **" لا يخرج أحد بغير سلاح صغيرا أو كبيرا، ويبنون في المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق..." فلا يبقى منهم من يذكر الله ويستمع لخطبتي العيد إلا قليلا منهم..."**[46].

ب-الجنائز:

من بين العادات التي استغربها أبو سالم العياشي هي رمي ثياب وهي في حالة سليمة للموتى عند أبواب مدينة ورقلة، حيث يشير أنه عندما دخل رفقة بقية حجاج الركب وجد كما هائلا من خرق الصوف والكتان وألبسة أكثرها صالح للاستعمال لا قطع فيها، ويستغرب كثرتها وصحتها ، ولا نعلم السبب في عدم أخذ الناس لها وتركهم الانتفاع بها، وهي لو جمعت لكانت اجمالا وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى، وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس ، ولا نعلم صحة ذلك والله اعلم..."[47].

ج- الطلاق:

من العادات الاجتماعية التي أثارت استغراب العياشي في إقليم توات هي تلك المتعلقة بالجانب الأسري وبالضبط في موضوع الطلاق نقل لنا أبو سالم خبرا كان قد سمعه **ممن يثق به من طلبة توات مفاده أن سكان هذا الإقليم إذا ما أراد أحدهم أن يطلق امرأته بسبب نشوزها أتى بشهود يشهدهم بأنه ما طلقها إلا ليؤذيها ويكسر شوكتها، فإذا ما أرادت الزواج مرة أخرى أتى بالشهود فأظهروا ما أشهدهم عليه ، فلا تتزوج أحدا حتى ترجع اليه، وأكد له طلبة توات أن حكامهم يحكمون بصحة هذا الحكم ، كما أكدوا له كذلك أن هناك من فتاوى الفقهاء ما يجيز هذا الحكم ويفتي بصحته..."**[48].

4.4الوضع الصحي:

أ- الأوبئة:

لقد رصد لنا العياشي الحالة الوبائية التي طالت الجزائر أثناء عودته من الحج مرورا بمدينة بسكرة، وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى، حيث أخبرنا بالوباء الحاصل سنة (1060هـ/1660م) حيث قال:**"... وفي سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه، وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة ..."**[49]، كما صور لنا العياشي حرص الحجاج الركب

من الوباء وأخذ الحيطة من هذا الوباء الذي اجتاح تلك المنطقة فقال: " **...ولم ندخل إلى زيارته وبتنا بينه وبين بسكرة...."**[50].

وتجدر الإشارة إلى أن العياشي كان دقيق الوصف للحالة الوبائية حيث نجده يقدم لنا إحصائيات وأرقام حول عدد الموتى الذين ماتوا من جراء الوباء فقال:"**... وفي تلك السنة، كان وباء مفرطا مات به بسكرة على ما قبل نحو من سبعين ألف نفس..."**[51]،

وفي موضوع آخر نجده يقدم لنا وصفا عن الطرق الاحترازية التي كان يتخذها سكان الصحراء بحيث أشار إلى مدينة الاغواط التي تعرضت لموجة وباء التي أضرت بساكنة المدينة حيث رصد لنا العياشي المشهد ففي حادثة طريفة أشيع خبر كاذب من بعض الأعراب لساكنة مدينة الاغواط مفاده أن حجاج الركب فيهم مصابون بالطاعون فمنع حجاج الركب من دخول المدينة، وقد صور لنا العياشي الطرق والأساليب التي كان يتبعها سكان مدينة الاغواط لتجنب تفشي الظاهرة حيث قال : " .... **وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل..."**[52] وهذا ما يدل على مدى الحرص والصرامة التي كان عليها ساكنة الأغواط الشديدين في تعاملهم مع الوباء الذي أضر بهم كثيرا مما جعلهم يتخذون الإجراءات الصارمة من أجل التخفيف من حدته وحتى لا يختلطوا مع ركب الحج ويحتكوا به مما سوف يساهم في تفشي الظاهرة الوبائية فكانوا يلجؤون إلى طريق أخرى حتى لا يحتكوا بركب الحج وهي رمي الدلو والحبل من فوق أسوار المدينة ثم يغسلون النقود حتى لا ينتقل الوباء.

5.4الوضع الأمني بالمناطق الصحراوية:

لقد شغلت الرحلة العياشية بحالة الأمن (اللصوص وقطع الطرق) التي كانوا يتعرضون لها طوال طريق الرحلة فنجده يركز كثيرا على معرفة أخبار قطاع الطرق وأماكن تواجدهم وفي الكثير من الأحيان ينقل لنا حالة الرعب والخوف الذي كان ينتاب ركب الحج عند السماع بأن الطرق غير أمنة فعلى سبيل المثال ما حدث في وادي ايمقيدن في إقليم توات وهو طريق يربط بين اوقروت والقليعة ذكر لنا العياشي انه كان معجبا بكثرة مياهها وعذوبتها "**... إلا أننا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمود عرب توات، خائفين من عدوهم من سعيد أن يغيروا عليهم..."**[53]نستشفي مما نقله لنا العياشي أن المنطقة لم تكن أمنة وأنها كانت محل صراع من طرف السكان المحليين والأعراب .

ولم تخل الطريق من قطاع الطرق واللصوص ، لذلك نجد أن العياشي كان حريصا في نقل وتسجيل كل صغيرة وكبيرة حول ما يتعلق بقطاع الطرق وكما سبق وأن أشرنا أنه كان ينقل لنا حتى حالة الحجاج عند سماع خبر الأعراب وهذا واضح من خلال الخبر الذي أورده بعد مرور الركب بماء زيرارة، فلقد ارتعب الحجاج وحصل نوع من الروعة والخوف لديهم بعد أن سمعوا أن هناك من الأعراب من يريدون الإغارة عليهم فتهيأ أهل الركب للقتال وأعدوا العدة لذلك ، وأخرجوا آلة الحرب لكن تبين في الأخير أن هذا الخبر لا أساس له من الصحة، فلم يلقوا أحدا من الأعراب في طريقهم وكان الخبر كاذبا[54].

وتجدر الإشارة أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا جميعهم لصوص فعل سبيل مثل فقد أورد لنا العياشي:"**...أن بعضهم أهل عافية لا أذاية فيهم"**[55].

5. خاتمة:

من خلال دراستنا للموضوع الموسوم بـ: **صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني على ضوء رحلة -أبو سالم العياشي** -.يمكن استخلاص جملة من الاستنتاجات الهامة التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

تعتبر رحلة أبو سالم العياشي المسماة بـ: " ماء الموائد" من أضخم الرحلات التي شهدها المغرب العربي خلال القرن 17م وهي تقع في مصنفين، وقد ضمنها أخبار وحوادث مختلفة عن البلدان التي مر بها أثناء سفره إذ نقل لنا مختلف المشاهد التي رآها أو سمع بها عن أحوال الناس في معيشتهم وأمنهم وعاداتهم وتقاليدهم، ناهيك عن أحوال ركب الحج وبحكم أن الجزائر إحدى البلدان التي زارها العياشي، فقد خصص صفحات عديد في مصنفه حول الجنوب الجزائر ي، وبعض المدن التي مر بها وقد حرص على نقل أدق التفاصيل على المجتمع الصحراوي.

لقد تميز المجتمع الصحراوي حسب الرحلة بوجود نظام اجتماعي خاص منقسم إلى صنفان هما سكان الحضر والبدو، وعلى الرغم من اختلاف النمطين في خصائصهم المعيشية إلا أنهم اشتركوا بعديد من العادات والتقاليد التي دخلت ضمن منظومة القيم الاجتماعية وطبعت الحياة ساكنة تلك المنطقة والتي سوف تتغير بسبب تخلي الأجيال عن الموروث الشعبي، إذ بدأت تندثر شيئا فشيئا بسبب عدم ممارستها وكذا بسبب ما أحدثته العولمة والتغيرات الحديثة.

لقد نقل لنا أبو سالم العياشي الوضع الصحي والإضطرابات التي مست المجتمعات الصحراوية جنوب الجزائر خلال القرن 17م، والتي أضرت بمنطقة نتيجة لتفشي الوباء بين سكان المنطقة كما أبرزت لنا الرحلة الطرق والوسائل والأساليب الاحترازية التي اعتمد عليها سكان المنطقة في محاربة انتشار الظاهرة الوبائية.

وخلاصة القول أن رحلة أبو سالم العياشي تعد مصدرا تاريخيا مهما خلال القرن 17م بالنسبة للبلدان المغاربية بصفة عامة، وللجزائر بصفة خاصة فقد نقلت وحافظت لنا على صورة المجتمع الجزائري بجنوب الصحراء خلال العهد العثماني وبذلك نقول أن الرحلة تعتبر بمثابة شهادة حية عكست لنا واقع المجتمع بصدق وتستمد قيمتها الحقيقية من مضمونها الغني والدسم بالمعلومات التي نقلها العياشي عن المجتمعات التي زارها هذا من جهة، ومن جهة أخرى من شخصية أبو سالم في حد ذاته إذ أنه يعد من كبار العلماء والفقهاء آنذاك ، وبهذا فإن أدب الرحلة يعد ثروة معرفية كبيرة لا يمكن أن يستهان بها.

6.المراجع

1إبن منظور، لسان العرب، ج.11، بيروت، دار صادر، [د.س]، ص ص 276-279

2عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1416ه/1996م،ص15.

3خالد التوزاني، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة و التلقي، الاردن، دار الفارس للنشر والتوزيع، 2017م،ص ص 50-51.

4خالد التوزاني، المرجع نفسه، ص51.

5أحمد مهدي محمد الشويخات وآخرون،الموسوعة العربية العالمية،ج.11، المملكة العربية السعودية، مؤسسة أعمال للنشر والتوزيع، 1419ه/1999م،ص141.

6شوقي ضيف، الرحلات، مصر، دار المعارف، 1956م، ص19.

7سورة الحج ، أية رقم 27.

8عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين –دراسة تحليلية مقارنة-،الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر ،1417ه/1996م،ص36.

9حسين نصار، أدب الرحلة، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان، 1991م،ص19.

10بناهض عبد الكريم، " التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد)"، **مجلة الذاكرة**، العدد.10،جامعة قاصدي مرباح ورقلة، السنة.2018م، ص 58. ينظر: صالح احمد العلي، الحجاز في صدر الإسلام : دراسة في أحواله العمرانية الإدارية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1990م، ص 07-26.

11إبراهيم أحمد العدوى، ابن بطوطة في العالم الإسلامي، مصر، دار المعارف، 1954م، ص08.

12نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية و المغربية: حتى نهاية القرن التاسع الهجري،القدس، دار المأمون للنشر ،2008م،ص75.

13فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب،2002م، ص20.

14زروق جيجيك، الرحلات وأثرها في انتشار التصوف في الجزائر العثمانية رحلة الورثيلاني أنموذجا (10-13ه/16-19م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس،1441-1442ه/2019-2020م، ص37.

15**علي بن محمد التمكروتي:** ولد سنة (941ه/1534م) في بيت علم وصلاح ، عاش في كنف والده وتعلم في زاويته هو وأخوه محمد، وأخذ عن مشايخ درعة ثم درس في الزاوية، توفي (عام 1003ه/1594م) ودفن بروضة القاضي عياض بمراكش. علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم، تحقيق: عبد اللطيف الشادلي، الرباط، المطبعة الملكية، 2002م، ص ص 5-6.

16الحاج صادوق، الرحلات المغاربيةإلى الحجاز إبان القرن التاسع عشر الميلادي وأثرها على البيئة الحجازية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر -2-، 2011-2012م ،ص ص 25-26.

17سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة " قديما وحديثا"، القاهرة، مكتبة غريب، [د.س]، ص 11.

18فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 20.

19زروق جيجيك، المرجع السابق، ص 37.

20عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة، المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز، 1429ه/2008م، ص45.

21**آيت عياش:** قبيلة من البربر تتاخم بلادهم الصحراء من احواز سجلماسة ، ويقال للواحد منهم بلغتهم فلان أعياش. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس و الإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات،تحقيق: إحسان عباس، ج.2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402ه/1982م،ص 832.

22**تافلالت:** يطلق هذا الاسم على مجموعة من الواحات الواقعة على ضفتي وادي زيز ووادي غريس والنيف، تبلغ مساحة هذه الواحات نحو 12 ألف هكتار يقطنها نحو 70 ألف نسمة. الصديق بن العربي، كتاب المغرب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1404ه/1984م، ص 98.

23**محمد بن ناصر :** أحمد بن محمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، فقيه ومحدث صوفي، أخذ عن والده وأبي العباس الجز ولي وعلى العياشي، رحل إلى المشرق في العديد من مرات ، تولى الزاوية الدرعية بعد أبيه، من تصانيفه: رحلة المشرق ، وكتاب الأجوبة، توفي 1129ه . محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار واعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي،المجلد.1،بيروت، منشورات

دار الأفاق الجديدة ،1403ه/1983م،ص 312،ينظر: محمد بن محمد مخلوف،شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، 1349ه،ص 332.

24**فاس**: تعد مدينة فاس من اكبر المدن الإسلامية في المغرب وتحتل مقاما ممتازا في المغرب كعاصمة ذات تاريخ مجيد، يرجع تاريخ بنائها إلى عصر المولى إدريس الثاني سنة 193ه. الصديق بن العربي، المرجع السابق ،ص 207.

25**عبد الرحمن بن القاضي:** هو عبد الرحمن بن أبي القاسم، ابن القاضي الفاسي، أبو زيد ، ولد سنة999ه ، نشأ في بيت عفاف وصيانة طلب العلم عن كثير من العلماء من بينهم محمد بن يوسف التاملي، وعبد الرحمن بن عبد الواحد العباسي وغيرهم، بلغ الغاية في العلوم حتى وصف بأنه" الإمام الفقيه المحدث الهمام، النحوي الشهير، إمام القراء، وشيخ المغرب الشهير ، وأستاذ الأساتيذ العالم الكبير، من أثاره العلمية: الفجر الساطع والضياء اللامع في شرح الدرر اللوامع، إيضاح ما ينهم على الورى في قراءة عالم أم القرى وغيرها، توفي ت1082ه .عبد الكريم بوغزالة،" الإمام عبد الرحمن بن القاضي المغربي وجهوده في خدمة كتابة الله تعالى –علم الرسم القراني نموذجا-،**مجلة المعيار**، المجلد .12،العدد.23، جامعة العلوم الأمير عبد القادر قسنطينة،السنة. 2010م،ص ص36-37.

26**عبد القادر الفاسي** : أبو عبد الله بن حافظ بن زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، تلقى العلوم عن أبيه وعلماء عصره في المغرب وكذا المشرق الإسلامي، توفي 1134ه. محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار واعيان المائة الحادية و الثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة، 1403ه/1983م،ص323-324.

27مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م،ص17.

28المرجع نفسه، ص18.

29عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661-1663م)، ج.1، تحقيق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، الإمارات العربية المتحدة، دار السويد للنشر و التوزيع،2006م،ص30.

30عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ج.2،ص833.

31عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى دليل ابن سودة، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،1418ه/1997م، ص248.

32عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ج.2،ص833.

33شرف موسى، " أخبار العلم و العلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالي نماذجا"، **قضايا تاريخية** ، المجلد. العدد.7،المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، السنة. 1439ه/2017م، ص86.

34ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي : تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"،بيروت، دار الغرب الإسلامي،1999م، ص ص 378-379.

35**سجلماسة**: مدينة تاريخية اندثرت الآن ، أسسها في أواسط القرن الثاني بنو مدرار الخوارج الصفرية وبقيت مزدهرة العمران إلى أن أحلتها الفاطميون وأسس بها المهدي الفاطمي دولة الفاطميين قبل انتقال إلى افريقية في أواسط القرن الرابع ، واستمرت عمارتها إلى أن فتحها عبد الله بن ياسين وقضى على أمرائها من بني خزرون. الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص 228.

36**توات** : هي منطقة بجنوب الغربي للجزائر و تعد من بين أهم الحواضر الصحراوية تعد محطة رئيسية على طريق القوافل التجارية تعود عمارتها إلى عصور ما قبل التاريخ حسب الشواهد الأثرية، وبعد دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا لعبت دورا أساسيا في انتشار الإسلام جنوب الصحراء وفي العلاقة بين دول وممالك المغرب الإسلامي والسودان الغربي . مبارك جعفري، " المؤرخون و الكتابة في منطقة توات مابين القرنين 12و14ه (18-20م) "**مجلة عصور الجديدة**، المجلد.2، العدد.3-4،جامعة وهران 1 أحمد بن بلة،السنة.خريف1432-1433ه/2011-2012م، ص276.

37**وادي قير** : واد ينحدر من جبال الأطلس جبل تاندرارة ويجري نحو الجنوب إلى أن ينصب في وادي مسعود. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م،ص 66.

38**تقرت**: عاصمة وادي ريغ بين ميزاب غربا ووادي سوف شرقا يختلط تاريخها بتاريخ قبيلة ربغة سنجة وبني افرن وبالحروب بين ابن غنية و الموحدين، وعرفت تقرت حكم بني مزني وحكم بني عبيد الله وبني جلاب وسيطرة العثمانيين منذ عهد صالح رايس إلى أن استولوا الفرنسيون في 05 ديسمبر 1844م. مولاي بلحميسي ، المرجع السابق،ص 90.

39مولاي بلحميسي ، المرجع السابق،ص25.

40عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661-1663م)، ج.2، تحقيق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، الإمارات العربية المتحدة، دار السويد للنشر والتوزيع، 2006م،ص542.

41المصدر نفسه ،ج.2، ص 539.

42**الحضر**: خلاف البدو ، الحاضر خلاف البادي، وفي حديث يقول لا يبيع الحاضر لبادي الحاضر هو المقيم في المدن والقرى و البادي هو المقيم في البادية. ابن منظور، المصدر السابق، مج.4، ص 197.

43ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني،الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص97.

44عبد الحميد زوزو، " الوضع في منطقة ورقلة قبل الاحتلال الفرنسي "،**مجلة الأصالة**،العدد.41،تصدر ها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر،السنة. 1977م، ص101.

45أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج.2، ص 539.

46المصدر نفسه، ج.2، ص 549.

47أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج.1،ص118.

48مصدر نفسه، ج.1،ص84

49أبو سالم العياشي، المصدر السابق،ج.2،ص539.

50أبو سالم العياشي، المصدر السابق،ج.2،ص539.

51 المصدر نفسه، ج.2،ص540.

52المصدر نفسه،ج.2،ص546.

53أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج.1،ص107.

54المصدر نفسه، ج.1،ص112.

55نفسه،ج.1، ص 112.